الفصـــل الثالـــث

نشـــأة مفهـــوم المجتمع المدني وتاريخـــه في سيـــاق الفكـــر الغربـــي

النظرية السياسية وجون لوك:

ظهـر مصطلح "المجتمع المدنى Civil Society" فى العصور الحديثة، وفى السياق الغربى، ليدل على المنطقة الوسطى بين الأسرة والدولة. ويشير مفهوم المجتمع المدنى فى النظرية السياسية كما تشكلت فى الفكر الغربى، إلى المجتمع الذي يتشكل بناء على "العقد الاجتماعي"، وينظر إليه كإطار تنظيمى مقابل للإطار التنظيمى للدولة [1].

وحـتى نفهـم هـذا المعـنى لابـد مـن الـتوقف قـليلا عـند مفهـوم العقد الاجـتماعى عند جون لوك John Lock (١٦٣٢-١٧٠٤م)، وهو فيلسوف إنجلـيزي ليـبرالى. ذهـب إلى أن الحـق فى الحياة والحق فى الحرية والحق فى الملكـية الشخصـية هـى أهـم الحقوق الطبيعية للإنسان. ويولد الإنسان بهـا. ولا يحق لأي إنسان آخر سحبها منه أو الجور عليها؛ ومن ثم فهى ليست موضعا للجدل أو التفاوض. وقال لوك بنظرية العقد الاجتماعى التى تـنص عـلى أن أفراد المجتمع يتنازلون عن بعض حريتهم للحكام من أجل حفظ الأمن ورعاية المصالح المشتركة. وليس هذا التنازل كاملا وبلا شروط، بل هو تنازل عن جزء محدود من الحريات الفردية للسلطة المركزية، أي لـلحكومة. بـناءا عـلى عقـد أو اتفـاق أو دسـتور مـتفق عـليه بـين أفـراد المجـتمع والحكـام. ويسـتمد الحكـام شـرعيتهم من هذا العقد الاجتماعى فقط. ومن ثم فشرعية الحكم ليس لها مكان إذا لم يوجد مثل هذا العقد[2].

وقد طرح لوك فكرة العقد الاجتماعى لمواجهة الاستبداد السياسى. ولرفض ما يسمى الحق الإلهى للحكام والملوك؛ لأن الله خلق الناس سواسية. وإذا كان البعض يبررون الاستبداد، لأن الفوضى هى البديل الوحيد له، فإن لوك يرى "أن الفوضى ليست البديل الوحيد للاستبداد. فهنالك الحكم الدستوري المقيد الذي يمنع الفوضى والاستبداد معا"[٣]. وقد أثرت أفكار لوك على القادة الأمريكان مثل توماس جيفرسون؛ ولهذا فإن الثورة الأمريكية ضد التاج البريطاني فى العام ١٧٧٦م تبنت جميع أفكار جون لوك وضمنتها فى إعلان الاستقلال الأمريكى.

ومن ثم فالمجتمع المدنى عند لوك يدل على المجتمع الذي يتشكل بناء على "العقد الاجتماعى"، وينظر إليه باعتباره دائرة مقابلة لدائرة الدولة.

وتتمثل البذور الأولية فى الغرب لمفهوم المجتمع المدنى فى المفاهيم التى تم بلورتها في نظريات العقد الاجتماعي في الفلسفة السياسية الحديثة، مثل:

١- مفهوم "حالة الطبيعة" .. وهى حالة الفطرة التى كان يعيش الناس فيها بلا قانون أو نظام. وهى الحالة الأولى التي كان الناس عليها قبل نشأة النظم الاجتماعية والسياسية والدينية.

٢-مفهوم "عقد الاجتماع" الذي تحول فيه الإنسان من حالة الفطرة والطبيعة واللانظام إلى حالة الاجتماع والنظام السياسي والديني.

٣-مفهوم "حالة المدنية" وهى تلك الحالة التى تحول الناس إليها والتي سادت فيها النظم ونشأت فيه السلطة السياسية والدينية.

٤-مفهوم "عقد الحكومة" الذي ينعقد بين الناس والحاكم، ويعطي للدولة أساس وجودها الشرعي.

وعندما وصلت هذه المفاهيم إلى "أوج اكتمالها مع كل من لوك وروسو برز مفهوم المجتمع المدني وكأنه الغاية التي كانت تسعى إليه"[٤].

تاريخ المجتمع المدنى عند آدم فيرجسون:

يرجع الفضل بشكل مباشر في انتشار اصطلاح "المجتمع المدنى" إلى الكتاب المشهور عن هذا المفهوم وعنوانه " مقال في تاريخ المجتمع المدنى An Essay on the History of Civil Society " الذي ظهر سنة (١٧٦٧)، للفيلسوف الاسكتلندي التنويري Adam Ferguson (١٧٢٣ -١٨١٦). وقدم فيرجسون فى هذا الكتاب نظرية تشرح مراحل تطور الإنسانية من الناحية الاجتماعية الثقافية، حيث قال بوجود ثلاث مراحل للتطور الثقافي الاجتماعي، على النحو التالي:

المرحلة الأولى: هى المرحلة الوحشية التي كان يتصرف فيها الإنسان وفق منطق الغريزة الحيوانية الخالصة.

المرحلة الثانية: هى المرحلة البربرية التى ظهرت فيها الملكية الخاصة؛ حيث ظهر المجتمع التجاري القائم على المصلحة الذاتية وتحقيق الثروة.

المرحلة الثالثة: هى مرحلة المجتمع المدنى الذي ظهرت فيه الروابط الاجتماعية الراقية، وتحكمه الأخلاق، وتسود فيه نظم سياسية حرة وغير مستبدة، ويسيطر على النزعات البربرية والفردية الأنانية؛ ولذا تمثل هذه المرحلة الحضارية في جانبها المتمدين[٥].

وقد تمت ترجمة كتاب فيرجسون في السنة التالية لصدوره (١٧٦٨) إلى اللغة الألمانية. ومن المؤكد أن كنط Kant قد عرفه لأنه ذكره في كتاب "نقد ملكة الحكم " فقرة ٨٣. كما عرفه هيجل، وتحدث عنه في "الكتابات اللاهوتية

المبكرة". يقول أنوود: " تعبير المجتمع المدني يدين بشيوعه في ألمانيا إلى كتاب فيرجسون"[٦]. ولذلك فقد كان معروفا لهيجل منذ فترة مبكرة.

الشرط الضرورى للحرية عند توماس بين:

توماس بين Thomas Paine (١٧٣٧-١٨٠٩) مفكر أمريكى ديمقراطى ليبرالى، وهو مؤلف لمنشورات الثورة الأمريكية؛ وقد تأثر توماس بين بجون لوك، ودافع عن مؤسسات المجتمع المدنى ضد الحكومة ونظر إليه نظرة متباينة مع نظرة هيجل، وأظهر نوعا من الحماس اللامحدود للمجتمع المدنى[٧]، وقال: "الحكومة في أحسن أحوالها شر لا بد منه، وفي أسوأ أحوالها شر لا يمكن احتماله"[٨].

ويعد توماس بين المجتمع المدنى شرطا ضروريا طبيعيا للحرية. ومن ثم كانت أفكاره إحدى الروافد الرئيسة للمجتمع المدني الأمريكي بكل ما فيه من فعالية وماله من سلطة على الدولة.

وعلى العكس من تصور هيجل للطبيعة، يرى توماس بين أن الطبيعة "منتظمة في كل أعمالها"، وهذا هو السبب في أن العناصر المتنوعة للمجتمع المدنى تندمج عفويا وتلقائيا بشكل هارموني[٩]، دون حاجة إلى منظم خارجي مثل الحكومة.

مبادئ ولحظات المجتمع المدنى عند هيجل:

يعد الفيلسوف الألماني هيجل (١٧٧٠-١٨٣١م) صاحب فضل كبير في بلورة مفهوم المجتمع المدنى فلسفيا وتمييزه من الناحية النظرية عن مفهوم الدولة، ويعتقد أنوود أن هيجل لم يسبقه مفكر آخر ميز بمثل هذا الوضوح بين المجتمع المدني والدولة[١٠]. وقد تأثر هيجل في نظرته

للمجتمع المدنى بالواقع الاجتماعى والسياسى المعاصر له تأثرا واضحا؛ فقد جاء تصور هيجل للمبادئ التى يقوم عليها المجتمع المدنى كانعكاس للواقع الاجتماعى السياسى الذي كانت تعيشه أوربا فى عصره؛ فالفلسفة مرآة الواقع؛ وهى ابنة زمانها وعصرها. وهذا هو أحد الأسباب التي تجعل المرء يعتبر موقف هيجل الفلسفى موقفا تبريريا للواقع.

ويقوم المجتمع المدنى عند هيجل على مبدأين؛ هما :

١- المبدأ الأول: الذاتية الأنانية: وهى المبدأ الأول في المجتمع المدنى، وهى تتمثل فى الفرد الذي يتخذ من ذاته هدفا أساسيا؛ حيث يسعى لإشباع غاياته الجزئية. ويعمل على تلبية حاجاته الخاصة، ويحكمه الهوى الشخصى، وتحركه الضرورة المادية، ويدخل فى صراع مع الآخرين، ويكون أنانيا إلى أقصى مدى[١١]. ولا شك فى أن الأنانية تؤدي إلى التفرق والانفصال؛ ومن ثم فإن هذا المبدأ يشكل لحظة الانقسام والانشطار؛ لأنه يفصل بين الأفراد تبعا لحاجاتهم الشخصية، وينحصر كل فرد فى دائرة أنانيته الفردية؛ فالمجتمع المدنى "عالم فردانى ونفعى" وهو مملكة الذرية الاجتماعية، أي عالم مكون من ذرات اجتماعية، لأن وحداته صغيرة وقائمة بذاتها ومشتتة، حسب هيجل"[١٢]. ولذا فنظام المجتمع المدنى عند هيجل نظام ذري Atomistic متنافر الأجزاء[١٣]. ويبلغ الانقسام داخل المجتمع المدنى حدا يصبح فيه هذا المجتمع وكأنه ساحة قتال متواصل؛ حيث إن المصلحة الخاصة غالبا تقابل وتعارض مصلحة خاصة أخرى.

٢-المبدأ الثانى : التبادلية : لا يظل الفرد معزولا؛ ولابد من أن تتقاطع الدائرة الجزئية للفرد مع دوائر الآخرين؛ حيث إن كثيرا من الحاجات لا

تشبع إلا عن طريق الآخرين؛ فتنشأ علاقات التبادل بين الأفراد، وتتكون الجماعة التى يرتبط فيها الأفراد بعضهم ببعض برابطة عامة ومشتركة ومتوسطة بين الأفراد المستقلين[١٤]. وهكذا يكون المبدأ الثانى ناتجا عن إدراك الفرد أن حاجاته الأنانية الخاصة لن تشبع إلا عبر التبادلية والتداخل مع الأفراد الآخرين. فهنا يصبح الاجتماع وسيلة لتحقيق المصالح الذاتية للأفراد، وأداة لإشباع حاجاتهم الجزئية.

إن المبدأ الثانى يشكل لحظة الاجتماع والاتصال بين الأفراد، بينما كان يشكل المبدأ الأول لحظة الانشطار والتفرق والصراع بينهم. ومن هنا فإن المجتمع المدنى يقوم على الانشطار والاجتماع معا؛ مما يعكس التناقض الذي يقوم عليه المجتمع المدنى عند هيجل، حيث يبدو التعارض بوضوح بين الجزئى فى المبدأ الأول والكلى فى المبدأ الثانى. بين الذرية فى المبدأ الأول، والاتصالية فى المبدأ الثاني، بين الاستقلالية في المبدأ الأول، والاعتمادية والتبادلية في المبدأ الثانى.

وهكذا نجد أن نظرة هيجل للمجتمع المدنى على أنه نظام لصراع وتبادل الحاجات في الوقت نفسه، لا تخرج عن كونها نظرة اقتصادية ترى المجتمع المدنى مفتقدا للحرية وقائما على صراع الأضداد؛ ولذا فإنه يقدم "مشهدا من الإفراط والبؤس والفساد المادي والأخلاقى"[١٥].

وإذا كان المجتمع المدنى عند هيجل منشطرا ومنقسما، فلا ينقذه من انشطاره وتجزئه إلا وجود الروابط الجماعية مثل الزواج والنقابات؛ فـ "قدسية الزواج، وكرامة عضو النقابة، هما النقطتان المحوريتان اللتان تدور حولهما ذرات المجتمع المدنى غير المنظمة"[١٦].

ويمر المجتمع المدني بلحظات ثلاث، هي :

١- لحظة منظومة الحاجات The System of Needs: وهى اللحظة التى يقوم فيها الإنسان الجزئى بالسعى لتلبية حاجاته الذاتية، بواسطة العمل، وفى هذا السعى لإشباع الذات بواسطة العمل يقوم بإشباع الحاجات الموضوعية، أي حاجات غيره من الناس.

٢- لحظة تحقيق العدالة القانونية: وهى اللحظة التى يتم فيها تطبيق القانون بواسطة المؤسسة القضائية بغرض المحافظة على الشخصية والملكية وصيانتهما من الاعتداء، وإلغاء أي اعتداء عليهما.

٣- لحظة رعاية وضمان أمن ورفاهية أفراد المجتمع المدنى: وهى أمر مشترك، وليست فردية جزئية. وهى تسد الثغرات في تطبيق العدالة. وتتجلى هذه اللحظة في السلطة العامة والنقابات.

المجتمع المدنى ونقد الدولة عند جرامشى:

أنطونيو جرامشى Antonio Gramsci(١٨٩١-١٩٣٧)، فيلسوف إيطالى ماركسى لينينى، من مؤسسى الحزب الشيوعى في إيطاليا، من مؤلفاته "المثقفون وتنظيم الثقافة"، و" ملاحظات حول ميكافيلى والسياسة والدولة الحديثة"، و"المادية التاريخية وفلسفة بنديتو كروتشه"، و"دفاتر السجن"؛ حيث كان قد صدر عليه حكم بالسجن عشرين سنة عام ١٩٢٨، لثوريته ومناهضته للفاشية[١٧].ونقطة البدء فى فلسفته السياسية والتصور المفتاحى لها هو المجتمع المدنى. على العكس من فلسفة هيجل السياسية ، فالتصور المفتاحى لها هو نظريته في الدولة.

إن الفلسفة الثورية عند جرامشى تنتقد الدولة بأجهزتها القمعية التي تملك أدوات القوة والقهر، وأجهزتها التشريعية التي تبرر وتشرع

القوانين التى تكرس سيطرة الطبقة الحاكمة. وأجهزتها الأيديولوجية التى تسعى لكسب رضى الطبقات المحكومة عن الطبقة الحاكمة. كما ينتقد مثقفى السلطة الذين ينشرون تصور الطبقة الحاكمة للعالم ، وبشكل عام يدعو للوقوف ضد هيمنة الدولة وتسلطها.

الديمقراطية الاجتماعية الكلاسيكية (اليسار القديم):

تقول الديمقراطية الاجتماعية الكلاسيكية بمجتمع مدنى خاضع للدولة خضوعا تاما. وتسيطر عليها النزعة الجمعية. ولا تعطى الأسواق إلا دورا محدودا. ولديها نزوع قوي نحو المساواة الآلية. وكانت ترتبط بالاشتراكية، واتفقت فى بعض وجهات نظرها مع الشيوعية. مع أنها تعتبر نفسها فى تعارض معها.

وترى التدخل الشامل للدولة فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية. وتلزمها بإتاحة السلع والخدمات العامة، وتلتزم بإيجاد فرص العمل للجميع.

التصور الليبرالى:

الليبرالية مذهب رأسمالى ينادي بالحرية الفردية فى الميدانين الاقتصادي والسياسى، ويؤمن بالتعددية الأيديولوجية والتنظيمية الحزبية والنقابية التى لا يضمنها سوى النظام البرلمانى الديمقراطى الذي يفصل فعليا بين السلطات الثلاث: التشريعية، والتنفيذية والقضائية. ويضمن الحريات الشخصية والعامة بما فى ذلك حرية المعتقد الدينى[١٨].

ويحتل الفرد فى التصور الليبرالى محور الارتكاز فى البناء السياسى. ويتمتع فيه المجتمع المدنى بقسط وافر من الاستقلال والحرية. وذلك عند جون لوك وتوماس بين وآدم فيرجسون مثلا.

أما مفهوم المجتمع المدنى عند اليمين الليبرالى الجذري، فيؤكد الاستقلالية التامة للمجتمع المدنى وعدم خضوعه لأي شكل من أشكال المراقبة من الحكومة. ويرى أن دور الحكومة ينبغى أن يكون صغيرا ومحدودا جدا.ونزعته السوقية غير محدودة ومبالغ فيها. كما أن له نزعة أخلاقية استبدادية ومتسلطة، ويؤكد النزعة الفردية الاقتصادية ، أما سوق العمل فهو حر بشكل مطلق. ويرى اليمين الليبرالى الجذري عدم المساواة اعتقادا منه بأن المساواة تقضى على التميز الفردي وتؤدي إلى نشوء مجتمع من الأفراد المتماثلين بشكل آلى، أي أنهم عبارة عن نسخ متشابهة. وتسيطر على اليمين الليبرالى الجذري نزعة قومية تقليدية . ويرى دولة الرفاهية كشبكة أمان. وينتهج مسارا تحديثيا تقدميا. ويرى أن العالم مكون من دول قومية، والعنصر الحاسم فيه هو القوة، ومن ثم يرى أن الاستعداد للحرب والحفاظ على القوة العسكرية عناصر ضرورية لدور الدولة في النظام الدولي.

الطريق الثالث:

الطريق الثالث نهج جديد يشير إلى الإطار المرجعى للتفكير وصناعة السياسات التى تهدف إلى مواءمة الديمقراطية الاجتماعية مع عالم تعرض لتغيرات جذرية خلال العقدين أو الثلاثة الماضية. وهو طريق ثالث بمعنى أنه "محاولة لتجاوز كل من الديمقراطية الاجتماعية الكلاسيكية والليبرالية الجديدة ". هذا هو أحدث تعريف للطريق الثالث فى صورته الأخيرة فى الغرب ذكره منظرها أنتونى جيدنز فى كتابه "الطريق الثالث : تجديد الديمقراطية الاجتماعية". وهو التعريف المعبر عن الطريق الثالث كما استخدمه بيل كلينتون وتوني بلير.

لكن مصطلح الطريق الثالث فى حد ذاته ليس جديدا كل الجدة. وهو من حيث المفهوم قد تغير من مرحلة إلى مرحلة . فالمصطلح قد صيغ منذ بداية القرن العشرين، وشاع استخدامه فى أوساط جماعات الجناح اليمينى فى العشرينيات، وإن كان أكثر استخداما في الغالب من جانب الديمقراطيين الاجتماعيين والاشتراكيين.

وفى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية مباشرة قدر الديمقراطيون الاجتماعيون بوضوح تام أنهم اكتشفوا طريقا متميزا عن رأسمالية السوق الأمريكية وعن الشيوعية السوفيتية. وعند إعادة تأسيسها فى سنة ١٩٥١ تحدثت الدولية الاشتراكية بصراحة عن الطريق الثالث بهذا المعنى.

وظهر المصطلح عدة مرات أخرى، حتى أخذ أحدث استخدام له مع جيدنز المنظر لفلسفة الطريق الثالث، وعلى المستوى السياسى التنفيذي مع كلينتون وبلير.إذن فالطريق الثالث يعمل على تجاوز كل من الديمقراطية الاجتماعية الكلاسيكية والليبرالية الجديدة. وكأنه-إذا استخدمنا لغة هيجيلية - المركب الذي يتجاوز القضية ونقيضها.

وتقوم فلسفة الطريق الثالث على التعاون بين الحكومة والمجتمع المدنى وتبادل الرقابة، فموارد الحكومة ضرورية لتدعيم الأنشطة التى تضطلع بها الجماعات المحلية خاصة فى المناطق الأفقر، والقروض الصغيرة وسيلة لتشجيع المبادرات الاقتصادية المحلية. وعلى الدولة أن تحمى الأفراد من صراعات المصالح التى لا يخلو منها المجتمع المدنى أبدا. ومن جهة أخرى على المجتمع المدنى الصحيح أن يحمى الأفراد من القوة الطاغية للدولة، كما أن عليه أن يساعد فى مراقبة الأمن في المجتمع المحلي الصغير والإبلاغ عن الحوادث التي تقع في نطاقه[١٩].

هوامـــش الفصـــل الثالـــث

(١) شارلوت سيمور- سميث، موسوعة علم الإنسان، ترجمة مجموعة من أساتذة علم الاجتماع بإشراف د. محمد الجوهري، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة،١٩٩٨، ص٦١٤.

(٢) د.إمام عبد الفتاح إمام،مسيرة الديمقراطية،القاهرة، دار الحكمة،٢٠٠٠م، ط٢. ص٣٥-٣٦.

(٣) د. عبد الوهاب أحمد الأفندي، الإسلام والدولة الحديثة، لندن، دار الحكمة، بدون تاريخ، ص ٢١.

(٤) د. محمد عابد الجابري.المجتمع المدني في شروطه التاريخية، مجلة الوسط، العدد ٤١٥، ٢٠٠٠/١/١٠،ص٣٦.

(5)[لمزيد من التفاصيل راجع كتاب فيرجسون Ferguson:

An Essay on the History of Civil Society, ed. Duncan Forbes. Edinburgh. 1966.

(٦) ميخائيل أنوود، معجم مصطلحات هيجل، ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠، ص١١٣.

(٧) وذلك في كتابيه :

- Common Sense ,1776.
- The Rights of Man.1791-1792.

(٨) اقتبسه جوردن مارشال، موسوعة علم الاجتماع، ترجمة د. محمد الجوهري وآخرين، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠٠٠ ، ٣٢٠/١.

(9) Tomas Paine, Rights of Man, ed. Henry Collins, Harmondsworth. 1977. pp. 117. 126. 204.

(١٠)ميخائيل أنوود، معجم مصطلحات هيجل،ص١١٣.

(١١)هيجل ، أصول فلسفة الحق ، ص ٤٣١.

(١٢)رينيه سرو وجاك دوندت، هيجل، ص٩٦.

(13) Hegel, The Encyclopedia of philosophical sciences, tr. By William Wallace, Oxford University Press, London, 1954, second edition. Paragraph 523.

(14) Hegel, The Encyclopedia of philosophical sciences, Paragraph 523.

(١٥)هيجل. أصول فلسفة الحق. ص٤٣٣.

(١٦)المصدر نفسه. ص٤٩١.

(١٧)الفاشية: اسم الحركة التى قادها موسولينى وأوصلته إلى السلطة فى إيطاليا ١٩٢٢ م. والفاشية ذات نزعة قومية متطرفة. وترى أن الحكومة هى الكل فى الكل. وما الفرد فيها إلا عبد يعمل وفق مشيئتها. ومن ثم تقدس التنظيم الجماعى بشكل متطرف يسلب الفرد حريته. وتعادي الديمقراطية والمساواة. وتقف ضد الليبرالية. وتمجد الزعيم الأوحد!.

(١٨)انظر: د.عبد الوهاب الكيالى. موسوعة السياسة. ٥٦٦/٥.

(١٩)د.محمد عثمان الخشت. "الطريق الثالث فى عالم متغير". جريدة الأهرام. صفحة مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية. ١٩٩٩/١١/١٥. وأنتوني جيدنز. الطريق الثالث : تجديد الديمقراطية الاجتماعية.